مظاهر التعليمية في الخطاب الإبراهيمي

Didactics Aspects of Brahimi ‘s Discourse

د. حميد قبايلي

جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي (الجزائر)

hamidkebaili1961@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/08/27 **تاريخ القبول: 2020/09/14**

ملخص:

تمثل التعليمية أهم مجال من مجالات اللسانيات التطبيقية وهي تهتم باللغة بوصفها ممارسة بيداغوجية غايتها تأهيل المتعلم لاكتساب المهارات اللغوية، تحتاج في مسيرة تطورها إلى الاطلاع على الحصيلة العلمية للدراسات اللسانية كون هذه الدراسات – الدراسات اللسانية– تسعى في جوهرها إلى إيجاد التفسير العلمي الكافي لكثير من العوائق التي تواجه الحدث اللغوي للمتعلم. ويعدّ هذا العلم علما حديثا قدَّم الكثير من الحلول لمشاكل التعليم في الدراسات الغربية وحتى العربية التي رأت في دراسات الآخر – الدراسات الغربية – حلا لمشاكلها البيداغوجية متجاهلة كل ما قدّمته القرائح العربية في هذا المجال – مجال التعليمية– بدءا بابن خلدون ووصولا إلى العلامة الجزائري محمد البشير الإبراهيمي. حيث لم يكن هذا الأخير مصلحاً أو مرشداً فحسب، بل هو أكثر من ذلك؛ إذ يعد مفكراً ومنظراً في مجال التربية والتعليم، وقد ساعدته ثقافته الدينية، وتجربته التعليمية وسياسته الرشيدة كعَلمٍ من أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، على ضبط بعض آليات التعلم التي اكتسبها بالخبرة والمراس من أرقى المؤسسات التعليمية العربية.

الكلمات المفتاحية: مظاهر، التعليمية، الخطاب، الإبراهيمي.

Abstract:

Didactics is the most important field of applied linguistics and it is concerned with language as a practice of pedagogies aimed at qualifying learners to acquire language skills. It needs in its development process to know the scientific results of the linguistic studies that seek to find out the sufficient scientific explanation for many of the learners' linguistic obstacles . This science is a recent science that has presented many solutions to didactic problems in Western and even in the Arabic studies that saw in the Western studies a solution to its own problems in the Pedagogy ignoring all of the Arab classes that offered in this field starting from Ibn Khaldoun to the Algerian scholar Mohammad Al-Bashir Al-Ibrahimi. The latter was not only a favor or a guide, but more , he was a thinker in didactics . Its religious culture background and his experience helped him to be one of the figures in the Algerian Muslim Scholars Association helped him to control some of the learning mechanisms that he gained with experience from the most prestigious Arab educational institutions.

keywords: aspects, didactics, discourse, Brahimi.

مقدمة:

تأتي هذه الدراسة للبحث في الجهود التعليمية التي قدمها هذا العلامة الفذ للباحث العربي الذي ينبهر بالدراسات الغربية في هذا المجال، ويجهل هذه الجهود، ولتأخذ هذه الأعمال أيضا بعدها الحضاري والإنساني. في التأريخ لهذه العلوم. ولتوضيح أبعاد مضامين مظاهر التعليمية في الخطاب الإبراهيمي ينبغي طرح أسئلة دقيقة وهادفة.

- هل حمل الخطاب الإبراهيمي نظرة جديدة في الدرس اللغوي في ضوء اللسانيات التطبيقية الحديثة؟
- إلى أيّ مدى شكلت مظاهر التعليمية في الخطاب الإبراهيمي لبنة رئيسة في إنجاح العملية التعليمية في مدارس جمعية العلماء؟
- ما تأثير العوامل الدينية والعقلية والاجتماعية في العملية التعليمية عند الإبراهيمي؟
- هل نجح الإبراهيمي في تحديد العناصر الرئيسة في العملية التعليمية وأجاد توصيفها؟

وسيتم تناول الموضوع من خلال الخطة التالية:

العملية التعليمية عند الإبراهيمي وجوانب بنائها:

- الجانب الديني
- الجانب العقلي
- الجانب الاجتماعي
- مقولات الإبراهيمي في العناصر الأساسية في التعليم:
- المعلم
- المتعلم
- المادة التعليمية
- المدرسة

أولا– العملية التعليمية عند الإبراهيمي وجوانب بنائها:

يعدّ العلامة محمد البشير الإبراهيمي عَلَما من أعلام الإصلاح التربوي في الجزائر. إذ يُعد مفكرا ومنظرا في مجال التربية والتعليم.

يرى الإبراهيمي أنّ الثورة ليست سلاحا فقط، بل هي أيضا لسان ناطق يربي ويعلم لأنّ الاستقلال والتحرر لن يأتي إلا بوسيلته الفعالة المتمثلة في التعليم والعلم "وقد كان الإمام مقتنعا أنّ ذلك التحرر لن يأتي إلا إذا هيئت وأعدت وسيلته فلا يمكن أن تسبق غاية وسيلة وما الوسيلة– في رأيه– إلا العلم بأوسع معانيه"[1].

فهو يرى في العلم وسيلة لتحقيق الاستقلال والتحرر من الاستعمار، إذ هو نوع من أنواع الجهاد تشكل المدرسة ميدانه والمعلمون مجاهديه. وقد حاول محمد البشير الإبراهيمي محاربة كلّ الآفات التي تعيق العلم وتسد أبوابه في وجه الشعب الجزائري بما في ذلك الاستعمار الروحاني المتمثل في مشايخ الطرق الذي كان يسعى إلى تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم، فوضع – بعد أن كلفه إخوانه أعضاء المجلس الإداري– لائحة داخلية تخص أعمال الجمعية، وقد كان من بين تلك الأعمال، أعمال تخص الجانب التعليمي منها[2]:

- الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار.
- تجنيد المئات من التلاميذ المتخرجين ودعوة الشبان المتخرجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.
- العمل على تعميم التعليم العربي.
- مطالبة الحكومة الفرنسية الاستعمارية برفع يديها عن المساجد والمعاهد لاستخدامها في تعليم اللغة والدين.

وقد ساعدته ثقافته الدينية، وتجربته التعليمية وسياسته الرشيدة كعَلم من أعلام جمعية العلماء المسلمين من ضبط بعض آليات التعلّم التي مكنّته منها خبرته الطويلة التي اكتسبها من خلال تجربته التعليمية في بعض الدول العربية كسوريا وتونس وهذا ما مكنه من إرساء جملة من القواعد والأسس التربوية والتعليمية، فكانت دعوته إلى القيام بثورة ثقافية شاملة.

وينظر محمد البشير الإبراهيمي إلى التعليم على أنه هدف يراد منه إحداث مجموعة من التغييرات في الواقع الاجتماعي والاقتصادي، وكل جديد يحصل في الأمة إنما هو " وليد التطورات، والحوادث المفاجئة؛ التي تعمل على تكوين العالم كله تكوينا جديدا وأن أول ما تفعله الحوادث، طبع الأفكار والعقليات طبعا جديدا"[(3)].

ولأن النمو السليم يتطلب التكيف مع الواقع، وهذا الأمر تحققه عملية التربية والتعليم، فقد عكف محمد البشير الإبراهيمي على بناء الطفل في مراحله الأولى في مجموعة من النواحي رأى أن أهمها على الإطلاق الناحية الدينية.

1- بناء الجانب الديني:

يمثل الدين الوازع الأساس للمعلمين للقيام بواجبهم اتجاه مجتمعهم وأبنائه، وقد دعا محمد البشير الإبراهيمي إلى تركيز المعلمين على ماله صلة بالدين فيقول: "أمامكم مباحث التاريخ الإسلامي، وعبره وعضاته، وسير أمجاده فأحيوها تحيوا بها وتحيوا"[(4)]، وذلك لكون التاريخ الإسلامي جزءا من الوطن وشعبه، وقد كان البشير الإبراهيمي على وعي بقيمته ودوره في توحيد صفوف الشعب الجزائري والخروج به من دائرة الجهل إلى العلم والحرية.

يقول في موضع آخر: "أمامكم حقائق الدين وفضائله، وآداب الإسلام، وحكمه فاشرحوها وبينوها (...) أمامكم اللغة وعلومها وآدابها؛ فابحثوا ونقبوا واحدوا ركابها، واسعوا لبيان فضلها، وسعيكم لتعليمها، وأشربوا قلوب أولاد هذه الأمة: أنه ما غرد بلبل بغير حنجرته"[5]. وبالتالي يعتبر الدين واللغة في نظره أهم مقوم من مقومات بناء التربية والتعليم عند الإبراهيمي.

2- بناء الجانب العقلي:

ركز الإبراهيمي على مراعاة القدرات العقلية للمتعلم أثناء العملية التعلّمية، ذلك لأنها تختلف حسب المراحل العمرية، وبالتالي وجب تكييف العملية التعليمية مع هذه القدرات بتقديم معارف تناسب المتعلمين وذلك من خلال " تلقين الصغار أبسط القواعد في أسهل التراكيب، ثم تمكينها من نفوسهم بالتمرينات التطبيقية والحرص على إشرابهم معنى ما يقرؤون، والاجتهاد في تربية ملكة الذوق والاستنتاج في نفوسهم (...) والتشجيع على التكلم أمام الناس بما يمليه الخاطر، من غير اعتماد على وحي معلم أو كتاب"[6].

وتقر التربويات الحديثة أن التعليم يحقق أهدافه المرجوة حيث ما كان قائما على المقدمات والانتقال من السهل إلى الصعب، و مراعاة الجوانب العقلية والإدراكية.

3- بناء الجانب الاجتماعي:

لم يقصد محمد البشير الإبراهيمي من التربية والتعليم بناء الفرد فقط إنما حث على تربية وبناء الأفراد خدمة للمجتمع وأراد أن تظهر نتائج التربية والتعليم في سلوكات جميع أفراد المجتمع " فالمسلم لا يكون مسلما حقيقيا (...) حتى تستقيم اجتماعيته؛ فيحسن إدراكه للأشياء، وفهمه لمعنى الحياة وتقديره لوظيفته فيها"[7]، وبالتالي فتربية الفرد وتعليمه هي تربية للمجتمع وزرع للقيم الأخلاقية فيه، وعامل من عوامل بنائه.

وفي إطار بناء هذه الجوانب ركّز الإبراهيمي على المرحلة الابتدائية وأهميتها في التعليم عموما، وحدّد مجموعة من الأسس للتربية والتعليم يمكن جمعها في[8]:

- التربية في البيت قبل المدرسة.
- التربية قبل التعليم.
- التربية تكون في الصغر.
- الرفق بالمتعلمين.
- دراسة ميول الأطفال.
- القدوة الحسنة.
- التحذير من القسوة والعنف.

وللتعمق في مجموع القضايا التعليمية التي تطرق إليها محمد البشير الإبراهيمي نحاول إدراج كل قضية من هذه القضايا ضمن عناصر العملية التعليمية كما حددتها التربويات الحديثة وكما اهتم بها الإبراهيمي.

ثانيا– مقولات الإبراهيمي في العناصر الأساسية في التعليم:

1– المُعلِّم:

اهتم الإبراهيمي بالمعلِّم اهتماما كبيرا وجعله محرك العملية التعليمية باعتباره المربي والموجه والقائد في هذه العملية. وبالتالي فهو حجر الزاوية، وهو المسئول عن صناعة الأجيال يقول: "أي أبنائي المعلمين، إنكم في زمن كراسي المعلمين فيه أجدى على الأمم من عروش الملوك، وأعود عليها بالخير والمنفعة، وكراسي المعلمين فيه أمنع جانبا وأعز قبيلا من عروش الملوك، فكم عصفت العواصف الفكرية بالعروش، ولكنها لم تعصف يوما بكراسي المعلم"[9].

أولى العلاّمة البشير الإبراهيمي أولوية للمعلم، وأبدى اهتمامه به، وقد برز ذلك في كتاباته، لا لشيء إلا لأنه دعامة النشء والمجتمع والوحيد الذي يقوم بعملية التربية والتعليم حتى لأنه عند الإبراهيمي بمثابة المجاهد، واللبنة الأساس التي تقوم عليها المدرسة، وانظر إلى وصفه لهم قائلا: «أما دعائم هذا البناء ... فهم أشبال الغاب وحماة الثغور، عمار المدارس، وسقاة المغارس، مربو الجيل وأئمته، أبناؤنا المعلمون المستحقون لأجر الجهاد، وشكر العباد»[10].

فقد أنزله منزلة يستحقّها على جلاء قدره، وسعة جهده، وقد رأى الإبراهيمي أنّ وظيفة المعّلم ليست تربوية فحسب، بل له أدوار أخرى في مجتمعه كالتوجيه، والتثقيف، وكلّ ما من شأنه أن يضفي الحياة في النفوس والعقول، لذلك وجب عليه أن يتزود من كل علم بسهم؛ حتى يكون فعله له، لا عليه.

ويبين الإبراهيمي جملة من الوظائف، التي يجب على المعلم أن يؤديها بحرص وأمانة ولعل أهمها: تقديم المعرفة للمتعلمين بأناة، إذ يقول: «أمامكم العلم بآفاقه المتسعة؛ فبينوا ورغبوا، وأهيبوا بالغافلين عنه والمتخلفين عن ركبه؛ أن يشمروا ويسارعوا، وأن يتمسكوا بأسبابه، ويأخذوه عن أقطابه»[11].

وعن علاقة المعلم بالمتعلمين وواجبه نحوهم يقول الإبراهيمي: «يقويهم في الدينيات علماً وعملاً، وفي القرآن حفظا وفهما، ويروض ألسنتهم على القراءة والخطابة، وأقلامهم عن الإنشاء والكتابة، وعقولهم على التفكير الصحيح، ويصوغهم صياغة أخلاقية متقاربة ويشرف بهم على علوم الحياة من باب الرياضيات والطبيعيات... »[12]. من هنا كانت قيمة المعلم كبيرة في نظر الإمام البشير الإبراهيمي؛ لأنّه يدرك أن صلاح أي أمة تكمن في صلاح معلميها، وفي تشريف العامة لهذه النخبة، كونها تغذي النشء والبلاد بما فيه صلاح لحياتها، ونفع في أمورها.

والمعلِّم الحق في نظر محمد البشير الإبراهيمي: هو المعلم الذي لا يُقصِّر في أداء واجبه لأن التقصير بالنسبة للمعلم يُعدّ جريمة مضاعفة. حيث قال "إنّ التقصير في الواجب يُعدّ جريمة من جميع الناس، ولكن في حقنا يضاعف مرتين، فيعدّ جريمتين، لأنّ المُقصِّر في غيرنا لا يعدم جابرا أو عاذرا، فقد يغطي تقصيره عمل قومه، أو حكومته (...) أما نحن فحالنا حال اليتيم الضائع الجائع، إذا لم يسع بنفسه مات، فإذا قصرنا في العمل لأنفسنا ولما ينفع أمتنا ويرفعا فمن ذا يعمل لها؟..."[13].

ويشترط في المعلمين مجموعة من الصفات التي يجب التمسك بها، وينبه محمد البشير الإبراهيمي ويؤكد عليها وأهم هذه الصفات:

أ- التحلي بالتقوى وإخلاص العمل لله. فهي "العدة في الشدائد والعون في الملمات، وهي مهبط الروح والطمأنينة وهي متنزل الصبر والسكينة، وهي مبعث القوة واليقين، وهي معراج السمو إلى السماء، وهي التي تثبت القدم في المزالق، وتربط على القلوب في الفتن"[14].

ب- الإيمان العميق بشرف العلم والتعلّم والتعليم.العمل بما علم: حتى يكون قوله مطابقا لفعله، فإن كان مخالفا له فليس بأهل لأن يؤخذ منه ولا أن يقتدى به في علم. "لأن المعلم -كما يقول الإبراهيمي- لا يستطيع أن يربي تلاميذه على الفضائل إلا إذا كان هو فاضلا، ولا يستطيع إصلاحهم إلا إذا كان صالحا، فهم يأخذون عنه بالقدوة أكثر مما يأخذون عنه بالتلقين»[15].

ج- ضرورة التحلي باللين مع المتعلمين، وعدم استعمال القسوة معهم لأنّ ذلك يُنفِّرهم من جلسات التعلم ويبعدهم عنها، إذ يقول: "ليحذر المعلمون الكرام من سلوك تلك الطريقة العنيفة التي كانت شائعة بين معلمي القرآن، وهي أخذ الأطفال بالقسوة والترهيب في حفظ القرآن، فإن تلك الطريقة هي التي أفسدت الجيل، وغرست فيه رذائل مهلكة"[16]. وبالتالي فالقسوة سلوك يهلك المتعلم بدل تعليمه حسب رأي محمد البشير الإبراهيمي.

ويشير محمد البشير الإبراهيمي إلى ضرورة مراعاة ميول المتعلمين ورغباتهم لأنّ ذلك يفتح نفوسهم على التعلم "وليدرس المعلم ميول الأطفال بالاختلاط بهم، وليكن بينهم كأخ كبير لهم يفيض عليهم عطفه، ويوزّع بشاشته، ويزرع بينهم نصائحه، ويردّ الناد منهم عن المحجة برفق. إنّ درس الميول يمكّن المعلم من إصلاح الفاسد منها، ومن غرس أضدادها من الفضائل في نفوسهم"[17]. وتؤكد الدراسات الحديثة في علوم التربية أنّ تجاهل ميول ورغبات المتعلمين قد يكون عائقا رئيسا أمام التعلم واكتساب المعارف.

ويلقي محمد البشير الإبراهيمي على عاتق المعلمين وظيفية أخرى، حيث يتحمل المعلم مسؤوليته داخل المدرسة ويتحمل مسؤولية البيت الذي يعدّ مكملا للمدرسة في المجتمعات الحية لكن وضع وحالة المجتمع الجزائري لم يسمح للبيت بتقاسم المسؤولية مع المدرسة، "إنّ البيت عند الأمم الحية هي أخت المدرسة. كلتاهما مكمّلة للأخرى، فالتلميذ

بينهما يتقلّب بين عاملين من عوامل التثقيف والتهذيب. أما البيت عند أمّتكم فهي ضرة المدرسة، ما تبنيه هذه تهدمه تلك، وما تزرعه هذه تقلعه تلك. لأنّ قعائد البيوت جاهلات. وقعائد البيوت هنّ قواعدها، وويل لبيوتنا من هذه القواعد ما دمن جاهلات. ووارحمتاه لكم من هذه الحالة وهذا الموقف، ولا أب يؤيّد ويناصر، ولا أم تعين وتؤازر(...) إذا كان الأمر كذلك فانظروا – يا رعاكم الله– أي عبء ألقته المقادير على كواهلكم، وأي واجب تؤدّونه لدينكم ولغتكم وأمّتكم، وأيّ عهد في أعناقكم يجب أن توفوا به لها"[18].

فبالإضافة إلى اهتمام الإبراهيمي بدور المعلم داخل المدرسة، يهتم أيضا بوضع التعليم خارج المدرسة ويضيف إلى المعلمين مهام أخرى من أجل ضمان جودة التعليم.

2– المتعلِّم:

إذا كان محمد البشير الإبراهيمي قد اهتم بالمعلم اهتماما كبيرا باعتباره محرك العملية التعليمية، فإنّ اهتمامه بالمتعلم لا يقل عن دلك الاهتمام كون المتعلم العنصر المستهدف من هذا التعليم، والوعاء الذي يحمل المعارف لتحقيق غايات التعلم، ولبناء المجتمع يقول محمد البشير الإبراهيمي في مخاطبتهم "إنكم يا أبناءنا مناط آمالنا، ومستودع أمانينا، نُعِدُّكم لحمل الأمانة، وهي ثقيلة، ولاستحقاق الإرث، وهو ذو تبعات، وذو تكاليف، وننتظر منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصبح"[19].

إنّ عناية الإبراهيمي بالمتعّلم تبدأ من المراحل الأولى؛ أي من الطفولة، فقد أدرك الإبراهيمي أنه لا تضيع أمة من الأمم حظوظ الطفولة والناشئة من الرعاية والعناية، إلا ويفوتها حظ الاستفادة من الرجولة، لأن هذه الأخيرة في صلاحها ونجاحها وفعاليتها متوّقفة إلى حدّ كبير على نوعية الرعاية والتربية التي تُقدم إلى الناشئة، وتحقيق ذلك يعتمد على الطريقة التربوية السليمة التي أشار إليها، كمعرفة نفسياتهم وفطرتهم وميولهم وقدراتهم النفسية والبدنية، العقلية والروحية.

والاهتمام بالمتعلم يكون في مراحل طفولته الأولى، لأنّ بناء الأمة يقوم على بناء المتعلمين في المراحل الأولى، وقد اهتم بالمرحلة الابتدائية أكبر من اهتمامه بالمستويات

الأخرى. إذ يقول: "شباب الأمة هم عمادها، وهم مادة حياتها، وهم سرُّ بقائها، وخير شباب الأمة المتعلمون المثقفون، البانون لحياتهم وحياة أمتهم على العلم؛ وصفوة الشباب المتعلم المثقف، هم المتشبعون بالثقافة الإسلامية العربية والمقدمون لها، لأنهم هم الحافظون لمقوماتها، والمحافظون على مواريثها، وهم المثبتون لوجودها، وهم المصححون لتاريخها، وهم الواصلون لمستقبلها بماضيها"[20]. ويقدم محمد البشير الإبراهيمي للمتعلمين جملة من المبادئ التربوية والخصائص التي تساهم في ترسيخ المعرفة. يمكن إجمالها في[21]:

- إنفاق أكبر وقت في طلب العلم والتفرغ له.
- أخذ العلم من أفواه الرجال وبطون الكتب والسفر في سبيل تحصيله.
- ضرورة تدوين العلم لأنه أكثر حفظا وبقاء.
- وجوب التعرف على كلّ جديد يظهر في المجال العلمي.
- استثمار كنوز العلم بالبحث والمطالعة وكثرة المناظرة والمراجعة الدائمة.
- عدم الاكتفاء بما يتلقاه من دروس وضرورة البحث والاطلاع.
- عدم الاكتفاء بالمادة الموجودة في الكتب المدرسية ومحاولة الاطلاع على غيرها من الكتب في مختلف المجالات.
- استغلال أوقات الفراغ في طلب العلم وعدم تضييعها.
- عدم الاكتفاء بحفظ المتون وحدها، وحفظ كل ما يثري وينمي الملكة اللغوية.
- الابتعاد عند طلب العلم عن المناقشات الحزبية والخلافات السياسية.

3- المادة المعلَّمة:

اعتنى محمد البشير الإبراهيمي بالمادة التي تُعلَّم وتُلقَّن للمتعلمين والتي تساهم في بنائهم وتكوينهم معرفيا وتربويا ونفسيا، وحدد مجموعة من المواصفات في هذه المادة يمكن أن نجملها في:

- أصالة المادة العلمية بالاعتماد على ما صح وثبت بالدليل، والابتعاد عن القشور ومما لا فائدة منه[22].

- الاعتماد على اللغة العربية كأساس في التربية والتعليم، فالصواب أن "نتعلم ديننا ولغتنا وكل ما يخدمها من علوم وفنون، من البدايات إلى النهايات"[23]، وهذا لا يعني إلغاء اللغات الأخرى.
- مسايرة العصر في التعليم من حيث النظام والقوة والفعالية "والأمة تحتاج تعليما عربيا يساير العصر وقوته ونظامه لا تعليما يحمل جراثيم الفناء، وتحمله ندر الموت..."[24]. وهذا يعني ضرورة مسايرة المادة العلمية لروح العصر.
- حفظ القرآن الكريم لأنّه أساس العلوم كلّها يقول: "والقرآنَ القرآنَ، تعاهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة ..."[25].
- اعتماد الكتب السهلة ذات المحتوى المبسط يقول: "... واقرؤوا غيره من الكتب السهلة المبسوطة في ذلك العلم (...) وسينتهي الإصلاح الذي تقوم به إدارات جامعاتنا إلى اختيار كتب سهلة ممتعة في كل علم تفرض عليكم قراءتها ومطالعتها"[26]. وبالتالي يسعى هذا الإصلاح إلى التسهيل.
- وجوب تنوع المادة العلمية من المعارف العامة كالتاريخ والأدب والحكمة والأخلاق والتربية والطبيعيات والرياضيات وعدم الاقتصار على اللغة وعلوم الدين[27].
- الانقطاع للعلم والتبتل إليه، وإنفاق الوقت الكثير في تحصيله والاجتهاد في تلقيه، وفي هذا الصدد يقول: "إنّكم لا تضطلعون بهذه الواجبات، إلا إذا انقطعتم لطلب العلم وتبتلتم إليه تبتيلا، وأنفقتم الدقائق والساعات في تحصيله وعكفتم على أخذه من أفواه الرجال، وبطون الكتب واستثرتم كنوزه بالبحث والمطالعة، وكثرة المناظرة والمراجعة ووصلتم في طلبه سواد الليل ببياض النهار"[28].
- الاستزادة من تحصيل العلم بالبحث والمطالعة والمناظرة والمراجعة بتقسيم الأوقات في ذلك.
- العكوف على أخذه من أفواه الرجال وبطون الكتب، والرحلة في سبيله العلم للقاء العلماء والمشايخ، إذ يقول إن أسلافكم كانوا يعدون الرحلة في سبيل من شروط الكمال فيه»[29].

- وجوب تقييد العلم ونسخ الأصول ... «كانوا يقيدون، وأنتم لا تقيدون وكانوا ينسخون الأصول بأيديهم ويضبطونها بالعرض والمقابلة، حرفاً حرفاً وكلمة كلمة»[30]. فتقييد العلم وتدوينه أحفظ للطالب والقارئ، ولهما ولغيرهما أبقى.
- وجوب التعرف على الجديد من العلم الواسع، والآراء المفيدة من الكتب.
- الإخلاص في طلب العلم، وعدم التهاون في البحث؛ وفي ذلك يقول: «إنّ بيع القلم واللسان، أقبح من بيع الجندي لسلاحه»[31].
- الاستعداد القوي والهمة البعيدة، والنفس الكبيرة في طلب العلم، والإيمان به.
- عدم الاعتماد على حلق الدروس وحدها، والاعتماد معها على حلق المذاكرة الفردية والجماعية.
- عدم الاعتماد على الكتب المقررة لوحدها، والاعتماد على غيرها من الكتب المبسوطة الميسرة، موجها كل طالب إلى وجوب الاستزادة من روافد نافعة، وبذلك نجح أسلافنا إذ كانوا «يرجعون بالرواية الواسعة، والمحفوظ الغزير وينقلون الجديد من العلم، والطريف من الآراء، والمفيد من الكتب»[32] وبالتالي يظهر من خلال هذه المواصفات التي حددها الإبراهيمي اهتمامه الكبير بهذا الجانب من جوانب العملية التعليمية. ولم يقتصر على هذه الجوانب فحسب بل اهتم كذلك ببناء وتشييد المدارس.

اعتنى الإبراهيمي بالمادة العلمية التي تُعلَّم وتُلقَّن للطالب وركز على انتقاء ما يقدم للمتعلمين من مواد تبني المتعلم: نفسيا، وذهنيا، وخلقياً؛ «إذ ليس كل من يكتب بالعربية أو يتثقف بالثقافة الفرنسية، ولا كلّ من يستطيع أن يخطب في المجتمع، أو يحز من العلوم ضروبا، يسمى مثقفاً، أو عالماً، أو مصلحاً وهو في ذاته وشخصيته من الحقيقة»[33].

كما نجده يقرّ بوجوب مسايرة العصر وأن يقدم للمتعلمين ما ينفعهم في حاضرهم ومستقبلهم، وينشئ عقولهم على التفكير الصحيح، ويصوغهم صياغة متقاربة، إذ يرى أنّ الملكات لا تكفي فيها القريحة والطبع حتى تمدها الصنعة بإمدادها، ما دامت «المواضيع تتجدد، والمعاني تتوارد وتتشابه، ثم تتمازج، ثم تتمايز، فمن الواجب أن ننحت من هذا

المعدن القديم جوهرة ونصقلها»[34] ونقرأ مما سبق: أن الإبراهيمي يرى أن تربية ملكة من الملكات لا تقوم على المألوف أو المجَتر، ولا على أساس عشوائي للمدخلات التعلمية، بل يجب تحديد المادة، واختيارها؛ بحيث يستأنس لها العقل ويضيف عليها، بعد أن يتمكّن منها المتعلم، وتتخامر في ذهنه وتتمايز؛ فجودة المخرجات رهينة بجودة المدخلات، ويمكن تلخيص مضمون المادة العلمية التي يجب أن يتلقاها طالب العلم كما يراها الإبراهيمي في النقاط التالية:

- أصالة المادة العلمية، بالاعتماد على ما صحّ وثبت بالدليل، والابتعاد عن القشور ومما لا فائدة من ورائه.
- الاعتماد على اللغة العربية كأساس في التربية والتعليم، ولا ينافي تعلم اللغات الأخرى.
- مسايرة العصر في التعليم من حيث النظام والقوة والفعالية
- حفظ القرآن الكريم لأنه أساس العلوم كلها
- اعتماد الكتب السهلة ذات المحتوى المبسط
- وجوب تنوع المادة العلمية من المعارف العامة؛ كالتاريخ والأدب والحكمة والأخلاق والتربية، والرياضيات والطبيعيات.

4- المدرسة:

لقد أدركت جمعية العلماء المسلمين دور المدرسة في البناء والتطوير. يقول الإبراهيمي: "حياة الأمم في هذا العصر بالمدارس، ما في هذا شك، إلا في قلوب ران عليها الجهل وغان "أي غطى" عليها الفساد، ونفوس ختم عليها الضلال، وضب على مشاعرها المسخ، وطال عليها الأمد في الرق، فصدئت منها البصائر، وعييت الأبصار، فتغير نظرها في الحياة ووسائلها، فرضيت بالدون، ولاذت بالسكون"[35]. وبالتالي فالمدرسة هي أساس بناء المجتمعات لأنها تحارب الجهل والفساد وتقضي على الضلال. والمدرسة في التربويات الحديثة هي: "المؤسسة التي تنفذ الأهداف التي يريدها ويرسمها المجتمع وفقا لخطط ومناهج محددة وبرامج، وعمليات تفاعل وأنشطة مبرمجة"[36].

لا يختلف اثنان على أنّ البشير الإبراهيمي كان رائداً من رواد التوجيه التربوي وقدم للشعب الجزائري في أحلك أوقاته فرص التحرر من سلطة التعليم الفرنسي، وتجلى ذلك من خلال دروسه، ووعظه، مطالبا – كما طالب صديقُ دربه عبد الحميد ابن باديس— ببناء المدارس وقد حرص على وجوب إنشائها، والتعّلم فيها؛ إذ كان يرى أن العلم لا بد أن ينهل من المدارس وأن المدرسة وحدها القادرة على تحقيق غايات التعلم، وهي للمتعّلم خير مورد ومعين وقد ربط الحياة بالعلم، وألاَّ حياة لعلمٍ بلا مدرسة، بل إن «الحياة بالعلم والمدرسة منبع العلم ومشرع العرفان، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة...أما إرواء العقل والروح، وإرضاء الميول الصاعدة بهما إلى الأفق الأعلى، فالتمسهما في المدرسة، لا في القصر، ولا في المصنع، ولو تباهت الأبنية المشيدة بغاياتها...لأسكتت المدرسة كلّ منافس»[37]. فأساس بناء المجتمع، وتذكية العقول وتهذيب النفوس هي المدرسة تلك الجوهرة المتناسقة؛ لأن فيها نظام وترتيب والمتعلم فيها يبني نتائجه على مقدمات.

ثالثا– آراء الإبراهيمي، والتربية الحديثة:

لا تعدو أن تكون المدرسة – في رأي العلامة الإبراهيمي – المعبر الذي يمر فيه وتهدف هذه المدارس لتحقيق أهداف وغايات الأمة، ومما لا شك فيه أن المعارف والمهارات والسلوكات، متطورة ومتجددة ومستمرة، وتحتاج إلى الصقل والنقل والتطوير لمواكبة التطورات الحاصلة في المجتمعات.

ويرى محمد البشير الإبراهيمي أنّ بناء المدارس هو بناء للمنعة الدينية والدنيوية يقول: "والأمم تتفاضل وتتعالى بالبناء للخير والمنفعة والجمال والقوة، وما عدا هذه الأربعة فهو فضول عابث، لا يدخل في قصد العقلاء، وقد بنى أسلافنا لكل أولئك مجتمعة ومتفرقة، بنوا المساجد مظهرا للخير، وشادوا المدارس مظهرا للمنفعة، وأعلوا الحصون مظهرا للقوة، وسمكوا القصور مظهرا للجمال، فضموا أطراف الفخر، وجمعوا حواشي المجد، وحازوا آفاق الكلام، وقادوا الحياة بزمام، وأنشأوا بذلك كله للحضارة الإنسانية نموذجا من المدينة الفاضلة التي تخيلها حكماء اليونان، ولم يحققها ساسة اليونان، وإنما حققها من ساد بالعدل، وقاد بالعقل، وأولئك آبائي"[38].

وهو هنا يشير إلى نماذج المدارس في الدولة الأموية في الشام والأندلس، ونماذج المدارس في الدولة العباسية في العراق. هذه النماذج التي لم تغب عن بال رواد جمعية العلماء. وأساس صلاح هذه المدارس هم المعلمون الجادون العاملون المخلصون لمهنتهم "أما دعائم هذا البناء التي تمسكه أن يزول، وتصونه أن يختل أو يحول، فهم أشبال الغاب، وحماة الثغور، عُمّار المدارس، وسُقاة المغارس، مربو الجيل وأئمته، أبناؤنا المعلمون المستحقون لأجر الجهاد وشكر العباد، الصابرون على عنت الزمان، وجحود الإنسان، وكَلَب السلطان، المقدمون على كثرة الخُوّان، وقلة الأعوان،جيش الحق، وحاصة الشق، وألسنة الصدق"[39]، وبالتالي فبناء المدرسة لوحده غير كاف إنما تقوم المدرسة بواجبها في وجود المعلم المجِد المجتهد الذي يعمل على البناء والتشييد أيضا.

خاتمة:

لقد اهتم محمد البشير الإبراهيمي في إطار مشروع الإصلاح داخل جمعية العلماء المسلمين بإصلاح المجتمع في الكثير من النواحي الدينية والأخلاقية ، ولم يكن هذا الاهتمام مقتصرا على تلك الجوانب فقط إنما تعداها إلى الاهتمام بالعملية التربوية التعليمية في جميع نواحيها التي أقرتها جهود التعليمية الحديثة، حيث اهتم بالمعلم باعتباره محرك العملية التعليمية وحدّد له مجموعة من الصفات العلمية والأخلاقية لكي يقتدي به المتعلمون، كما اهتم بالمتعلم كونه متلقى التعليم، والوعاء الذي يحمل المعارف، وأعطاه أيضا بعض النصائح التي تساعده في طلب العلم كاستغلال وقته كاملا في طلب العلم، وتنويع معارفه، وعدم الاقتصار على ما يُقدَّم له في حلقات الدروس والكتب المدرسية. وطبعا لم يغفل المادة المتعلَّمة فاهتم بها هي الأخرى، وحدد لها مجموعة من الصفات كالتنوع والسهولة وضرورة حفظ القرآن الكريم ومواكبة التطورات الحاصلة في المجال العلمي.

ولم يتوقف عند هذه العناصر الأساسة والمكونة للعملية التعليمية إنما تعداها إلى الحديث عن المدارس وبنائها وتشييدها. وقد راعى في كل ذلك وضعية المجتمع الجزائري وحاول أن يرسم له وضعا تعليميا خاصا يمكن من خلاله أن يعمل على تحريره علميا ليؤهله لنيل حريته.

الهوامش والإحالات

(1)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997، ط1، 2 /21.

(2)– ينظر: محمد البشير الإبراهيمي: في قلب المعركة، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص: 223–249.

(3)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 123/2.

(4)– محمد البشير الإبراهيمي: إلى كتاب البصائر الكرام، جريدة البصائر، السنة الأولى، جانفي، 1936 ع2، ص2.

(5)– المرجع نفسه، ص 2.

(6)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 1/ 192.

(7)– المصدر نفسه، 1/ 283.

(8)– ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي. 262/3–265

(9)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 112/2.

(10)– أحمد طالب الإبراهيمي:آثار محمد البشير الإبراهيمي، 261/3

(11)– محمد البشير الإبراهيمي "إلى كتاب البصائر الكرام"، جريدة البصائر، السنة الأولى، جانفي: 1936، مج2، ص 2

(12)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي 273/1

(13)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 202/2.

(14)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 203/3.

(15)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 113/2.

(16)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 213/2.

(17)– المصدر نفسه 213/2.

(18)– االمصدر نفسه 114/2.

(19)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 201/3.

(20)– المصدر نفسه، 196/2.

(21)– ينظر: المصدر نفسه 306/2.

(22)– ينظر: محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص216.

(23)– المرجع نفسه، ص 275.

(24)– المرجع نفسه، ص313.

(25)– المرجع نفسه، ص 218.

(26)– المرجع نفسه، ص:217-218.

(27)– ينظر: المرجع نفسه، ص ص 280-281-282.

(28)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 306/3.

(29)– المصدر نفسه، 202/3

(30)– محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 20.

(31)– المرجع نفسه، ص9.

(32)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 202/3.

(33)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 128/2 -129.

(34)– المصدر نفسه، 160/4.

(35)– المصدر نفسه، 258/3.

(36)– إبراهيم ناصر: علم الاجتماع التربوي، دار الجيل، بيروت، لبنان،1976، ط2، ص71.

(37)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 258/3.

(38)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، 3/ 260.

(39)– المصدر نفسه 261/3.